نبذة مختصرة عن المشروع لجائزة الشيخ محمد بن راشد للغة العربية المشروع: (فعّاليّة اللّغة العربيّة !)

الدكتور طارق أمين ساجر الرفاعي
كُلية الآداب – الجامعة العراقية

درج علماء البلاغة والأدب عند تحليل النصوص أن ينسبوا النص الى (الطبع أو الصنعة) وتحديد مقدار الصنعة فيه. وأرى أن نسلط الضوء على ما ورد في دلائل (الطبع والصنعة) وما يتميز به أحدهما عن الآخر، فقد اختصر ابن رشيق (الطبع) بقوله : ((فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً وعليه المدار))[1]، ووضح ضياء الدين بن الأثير (ت 637هـ) أثر الطبع في أداء الأديب الذي حاز على آلات الأدب بقوله : ((وملاك هذا كله الطبع ؛ فإنه إذا لم يكن ثمة طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً)) ويشير إلى أثره في الجزيئات فيقول : ((وأغرب من ذلك ان صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في المراثي دون التهاني أو...، وكذلك صاحب الطبع في المنثور))[2].

وأما (الصنعة) فهي عند أهل الجاهلية وأشهرهم فيها زهير بن أبي سلمى التي يصفها ابن رشيق بقوله : ((والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ... حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها ... والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى – كما يفعل المحدثون – ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه واتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض))[3].

أما صنعة المولدين المحدثين وإمامها أبو تمام فيصفها ابن رشيق بقوله : ((وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من أشعار حبيب والبحتري وغيرهما – وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها – فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ – وما يملأ الأسماع منه – مع التصنيع المحكم طوعاً وكرها، يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة)). وهناك من ذهب إلى الاعتدال بالصنعة فيصفه بقوله : ((وأما البحتري فكان أملح صنعة وأحسن مذهباً في الكلام ، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، ولا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم

شاعراً أكمل ولا أعجب تصنعاً من عبدالله بن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة، لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلاّ للبصير بدقائق الشعر، وهو عندي ألطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً، ولا أرى وراءه غاية لطالبها في هذا الباب))[4].

ويجدر بنا أن نولي صنعة أبي تمام – ماله علاقة بالبديع – الاهتمام الكافي ونسلط عليها الأضواء لأنها أحد موازين هذا البحث، ونورد فيها آراء العلماء.

فمنهم عبدالله بن المعتز (ت 296) إذ يقول: ((قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون (البديع) ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نؤاس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم؛ لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم؛ فعرف في زمانهم...)) وخص أبا تمام بالإسراف فيه بقوله: ((ثم ان حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه و أكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف))[5] وفي موضع آخر يقول: ((كان مسلم بن الوليد صريع الغواني مدّاحاً محسناً مجيداً مفلقاً وهو أول من وسّع البديع، لأن بشار بن برد أوّل من جاء به، ثم جاء مسلم فحشا به شعره، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار))[6].

وقال أبوبكر الصولي (ت 335 هـ): ((لو جاز أن يُصرف عن أحد من الشعراء سرقة، لوجب أن يُصرف عن أبي تمام لكثرة بديعه واختراعه واتكائه على نفسه))[7] وقال أبو الفرج الأصفهاني (ت 356 هـ): ((إن أبا تمام قد جعل شعره كله مذهباً واحداً هو البديع))[8]. وتكلم القاضي الجرجاني (ت 366 هـ) عن الاهتمام بالاستعارة فقال: ((وقد كانت الشعراء تجري على نهج منها قريب من الاقتصاد، حتى استرسل فيها أبو تمام ومال إلى الرخصة، فأخرجه إلى التعدي، وتبعه أكثر المحدثين بعده...))[9]. ونقل المرزباني (ت 384 هـ) تعليق العتابي على بعض استعارات ابي تمام بقوله: ((هو والله شاعر ظريف مليح، إلاّ إنه أفرط في طلب البديع))[10].

وقرر ابن رشيق (ت 456 هـ) ان الشعر: ((لا يجب أن يكون استعارة وبديعاً كشعر أبي تمام فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز، وكيف قال فيه ابن قتيبة، وما ألّف عليه المتعقبون كالجرجاني وأبي القاسم بن بشر الآمدي وغيرهما، وإنما هرب الحذاق عن هذه الاشياء لما تدعو إليه من التكلف لا سيما إن كان في الطبع أيسر شيء من الضعف والتخلف))[11]. وقال ابن المستوفي (ت 637): ((قال أبو العلاء: إن أبا تمام تبع في أول أمره مذاهب الشعراء المتقدمين، ثم اختار مذهبين من مذاهب الشعراء، وهما التجنيس والاستعارة فأخذ منهما بحظ جزيل))[12].

لقد أسهبنا في ذكر أقوال العلماء هذه ، حتى يتبين للقارئ ما شاع عند عموم علماء الأدب من ولع أبي تمام بالبديع وسلوكه شتى الطرق للإتيان به في شعره سواء أكان بالإغراب والتوعر أو التعقيد وإكراه اللغة أو سلوك أضيق المسالك وأوسعها لجنيه وتحصيله ؛ مما حدى بهؤلاء العلماء وغيرهم إلى مُآخذته على هذه المآخذ.

بعد هذا التقديم لا يسعنا إلاّ أن نقول : إن جهد أبي تمام هذا الشاق في صنعته؛ لم يسعفه بعد التحليل ومقارنة النتائج مع جهد من اخترناهم من أهل الصنعة والطبع؛ لم يسعفه إلى التفوق عليهم ؛ بل لقد تجاوزوه جميعاً كما سنرى؛ على الرغم من تراكم المعرفة لديه ممن سبقه كما هو معلوم؛ إذ إننا بعد تحليل قصيدة (فتح عمورية)[13] تحليلاً بلاغياً؛ التي هي من قصائده المتميزة كانت حصيلة أوجه البلاغة فيها بعد تحليلها إحدى وأربعين نوعاً بما مجموعة تسعة وتسعون ومائة وجه في إحدى وسبعين بيتاً ، وبعدها دفعتنا الرغبة في البحث إلى تحليل (بردة كعب بن زهير)[14] بلاغياً؛ وهو من الشعراء المخضرمين للعصرين الجاهلي وصدر الاسلام، الذي كان بين الطبع والصنعة وهو الى الطبع أقرب و أشهر؛ وبعد التحليل ظهر أن أوجه البلاغة كانت عنده (ستة وخمسين نوعاً) بما مجموعه ثمان وعشرون ومائتا وجه في خمسة وخمسين بيتاً فتبين الفرق كبيراً بينهما إذ ظهر شعر كعب أكثر زخماً وافراطاً في أفانين البلاغة من أبي تمام إمام صنعة المحدثين ، مما دفعني إلى التفكر إلى أن في الأمر سراً ربما يعود إلى فعالية اللغة وديناميكيتها فطرحت أسئلة على الباحثين للإدلاء بدلوهم في هذه الظاهرة وهي :

1- هل إن الشأن لعظمة هذه اللغة ؛ بسبب وفرة مفرداتها؛ ومرونة وإحكام تراكيبها وسعة دلالاتها؛ وقدرتها على مواكبة الأديب ورفده على مقدار طاقاته وإبداعاته؛ وان غالب هذه الأوجه البلاغية يأتي طوعاً من غير قصد منه ؟

2- أم إن الشأن للأديب البليغ الذي يكيّف اللغة ويطوّعها ويثّقفها ويتخّل مفرداتها على وفق براعته ومؤهلاته وأذواقه وسعة أُفقه وحدة ذكائه ...؟

3- وما علاقة ذلك كله بالطبع والصنعة عند فحول شعراء الجاهلية وصنوهم من المولّدين ؟

4- وما هي معايير شعراء الجاهلية المتوقعة لتلك الصنعة ؟

ووعدت بالاستمرار بالبحث في هذا المجال، فرأيت أن أحلل (معلقة زهير بن أبي سلمى)[15] إمام الصنعة الجاهلية بلاغياً لأجل المقارنة ، فظهرت حصيلة صنوف البلاغة فيها خمسة وستين نوعاً بما مجموعه سبعة عشر وثلاثمائة وجه في تسعة وخمسين بيتاً ، وبذلك كان البون شاسعاً بينه وبين الاثنين على الرغم من تشبث أبي تمام بالصنعة والالحاح فيها كما بينا. ثم ذكرنا في هذا البحث ما يتوقع أن يتعمده الاديب عند النظم من صنوف البلاغة

هذه؛ فتبين أن ما بقي لقدرة اللغة وفعّاليتها؛ وامكانيتها على انشاء تلك التراكيب دون اهتمام من الاديب العدد الكثير؛ مما يؤيد صحة ما ذهبنا إليه .

وأود أن أبين أنني ذكرت في هذا البحث أيضاً؛ نتفاً وأدلة من كتب اللغة والأدب التي ألُفت قريباً من عصر التدوين تدل على وجود معايير ومنهجية عند النخب المثقفة في العصر الجاهلي؛ يتداولونها ويقيّمون مستويات التميُّز عند المتقدمين فيعظمونها ، ويحددون مجالات الضعف والخلل واللحن عند الآخرين فيرفضونها ، وأتمنى أن يراجعها أهل الاهتمام ليضيفوا إليها أدلة أخرى تدعم الاعتبار الثقافي والمعرفي والمنهجي عند عرب الجاهلية.

وبعد ذلك رأيت أن أتوغل أكثر في هذا المضمار ، فقررت تحليل معلقة أمريء القيس بلاغياً؛ باعتباره امام الطبع وأمير الشعراء لتكتمل أطراف الموضوع؛ فتبين بعد التحليل لهذه القصيدة أن فيها من فنون البلاغة تسعة وسبعين نوعاً بما مجموعه إحدى وتسعون وخمسمائة وجه في ثمان وسبعين بيتاً ، وهذه النتيجة تُرسّخ القناعة على حقيقة (فعّالية اللغة العربية) وديناميكيتها في مشاركتها للأديب الفذ المتميز ومشاطرتها له في إنشاء ونظم النصوص الرفيعة المتألقة والمتميزة.

لقد جعلت فنون البلاغة معياراً في هذه الموازنة بين هؤلاء الفحول ونصوصهم الرفيعة التي هي موضع الاهتمام عند علماء الأدب، ذلك لأن النظم السليم متعلق بعلوم الفصاحة للمفردة والعبارة وسبل ترابطها ، وبين دلالات الألفاظ ومدى استقصائها للمعاني في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) ، وقد برع العرب في ذلك وتميّزوا فيه لأن لغتهم لغة القرآن الذي نزل على الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) الذي تحداهم بنظمه المعجز فاستسلموا له وأظهروا العجز لإدراكهم حقائق إعجازه، ذلك لأنهم يتصفون بقدرات بيانية متوارثة مكّنتهم من معرفة أسرار هذه اللغة وأضرب البلاغة فيها وتذوقها والتفاعل معها ، فضلاً عما يتميزون به من سرعة البديهة وقوة الارتجال .

لقد أطلق الجاحظ على فنون البلاغة (البديع) وخصّ به العرب فقال: ((والبديع مقصور على العرب؛ ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان))[16]. وأشار القاضي الجرجاني إلى أهميتها في النظم بقوله : ((وأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يُتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر))[17]. ونقل ابن رشيق قول أبي الحسن علي بن عيسى الرماني عن أهمية فنون البلاغة في حسن العبارة وإصابة القصد فقال : ((أصل البلاغة الطبع، ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها فتكون ميزاناً لها ، وفاصلة بينها وبين غيرها ، وهي ثمانية أضرب : الإيجاز والاستعارة والتشبيه والبيان والنظم والتصرف والمشاكلة والمثل))[18].

وفي ذلك قال الزمخشري: ((وعلم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، .... فالفقيه وإن برّز على الأقران ..، والمتكلم وإنْ بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام .. والنحوي وإنْ كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجلٌ قد برع في علمين مختصين بالقران ، وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة....))[19].

وتوسع عبد القاهر الجرجاني (471، 474) واستقصى الموضوع وأفاض فيه، فإنه قد أدرك كثيراً من حقائق اللغة وأسرارها ودقائقها، وكان أسلوبه في التأليف على نمط سياقات القاء المحاضرة؛ إذ إنه يلقي بالقاعدة بعد التنبيه والدليل والتحليل والتوضيح.

- فقد قال في نظم الكلمات: ((ومعلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجَعْل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما... ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلامٌ من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه))[20]. وقال في نظم العبارات: ((اعلم أن ليس (النظم) إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينه وأصوله...))[21]. وبين فضيلة الألفاظ بقوله: ((ان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الفضيلة وخلافها؛ في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك ؛ مما لا تعلق له بصريح اللفظ))[22].

- ثم قسّم الكلام الفصيح إلى قسمين بقوله: ((اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تُعزى المزيّة والحسن فيه إلى (اللفظ)، وقسم يُعزى ذلك فيه إلى (النظم). فالقسم الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه – على الجملة – مجاز واتّساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلاّ وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي ؛ أوجب الفضل والمزية.... وأما القسم الذي تعزى فيه المزية إلى (النظم)... فإنما هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله، وليست معاني النحو معاني ألفاظٍ ؛ فيُتصور أن يكون لها تفسير.....، فإنك ترتب المعاني، أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنّا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني، لم يُتصور أن يجب فيها نظم وترتيب في غاية القوة والظهور))[23].

- وبيّن أهمية اللفظ والنظم في حسن الكلام فقال: ((وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حسنه للّفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالث قد أتاه الحسن من الجهتين،

ووجبت له المزية بكلا الأمرين . والإشكال في هذا الثالث ... . وهذا هو الذي أردت حين قلت لك : إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته.))[24] وأشار إلى أهمية المعنى بقوله : ((وإن كلامنا في فصاحةٍ تجب للّفظة لا من أجل شيء يدخل في النطق، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم، وإنا نعتبر في شأننا هذا فضيلة تجب لأحد الكلامين على الآخر، من بعد أن يكونا قد برّئا من اللحن وسلما في ألفاظهما من الخطأ))[25].

- ثم بين تفاعل أوجه البلاغة مع صحة النظم الذي يقتضيه علم النحو بقوله : ((إن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمارٍ، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه؛ وما لا يسوغ ولا يصحّ على أصول هذا العلم ... وإذ قد عرفت ذلك، فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل (النظم) خصوصاً، دون غيره مما يُستحسن له الشعر أو غير الشعر؛ من معنىً لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم ، وتأمّله؛ فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فأنظر إلى حركات الاريحية مما كانت؟ وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عيانا أن الذي قلت لك كما قلت))[26]

- وبيّن أهمية ضروب المجاز وأثرها بقوله : ((واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك، من أن من شأنه أن يفْخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة، .... وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ؛ والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً ؛ وأن يضعه بعيد المرام قريباً من الأفهام .))[27].

- وجعل سبيل الألفاظ التي فيها اتساع ومجاز في تراكيب البلاغة ، ولا يراد بها ظواهر ما وضعت له في اللغة ؛ إلى معنى المعنى بقوله : ((الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ......، وضرب ... يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على (الكناية والاستعارة والتمثيل) ..، وههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول : (المعنى)، و(معنى المعنى)، تعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى : أن تعقل من اللفظ معنىً، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، ... واعلم أنهم يصفون كلاماً قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكنّى وعرّض، ومثّل واستعار، ثم أحسن في ذلك كله وأصاب ...))[28] واشترط لتلك المعاني قوله: ((وإنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه،

متمكنا في دلالته مستقلاً بوساطته، يَسْفِر بينك وبينه أحسن سِفارة ويشير لك إليه أبين إشارة))[29].

- وردّ على من ذمّ الشعر من حيث هو موزون مقفّى، وبين أثر الشعر في سموّ الألفاظ والمعاني فقال: ((فإن زعم أنه إنما كره الوزن لإنه سبب لأن يُتغنّى في الشعر ويُتلهّى به، فإنا إذا كنا لم نَدْعُهُ إلى الشعر من أجل ذلك، وإنما دعوناه إلى اللفظ الجزل، والقول الفصل، والمنطق الحسن، والكلام البيّن، وإلى حسن التمثيل والاستعارة، وإلى التلويح والإشارة، وإلى صنعةٍ تعمد إلى المعنى الخسيس فَتُشرّفه وإلى الضئيل فتفخّمه، وإلى النازل فترفعه، وإلى الخامل فتنوّه به، وإلى العاطل فتحليه، وإلى المشكل فتجلّيه))[30].

- وردّ على من جعل المزية في خفّة اللفظ وسهولته بقوله: ((إنه يكفي في الدلالة على سقوطه وقلة تميز القائل به، أنه يقتضي اسقاط (الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز والإيجاز) جملة، واطّراح جميعها رأساً، مع أنها الاقطاب التي تدور البلاغة عليها، والأعضاد التي تستند الفصاحة إليها، والطِّلبة التي يتنازعها المحسنون ...، وهي التي نوه بذكرها البلغاء، ورفع من أقدارها العلماء ... ولم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلا ذكرها؛ وجعلها العَمَد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية؛ وخصوصاً (الاستعارة والإيجاز)، فإنك تراهم يجعلونهما عنوان ما يذكرون وأول ما يوردون))[31].

- تلك أهمية صنوف البلاغة في حسن الكلام ورونقه وتميزه، ولهذا جعلناها معياراً للتفاضل في بحوث هذه السلسلة، وبذلنا الجهد لاستقصائها وإحصائها؛ فالإحصاء هو الأمر الذي أكد عليه أهل الاختصاص في الأدب الحديث. ولذلك وجب أن نشير اليه باختصار شديد فنقول:

- أما الاحصاء وأهميته فسنجمله من كتاب (الاسلوب دراسة لغوية احصائية) للدكتور سعد مصلوح وذلك بقوله: ((واقد أمحضنا هذا الكتاب كله لنوع واحد من هذه المعايير الموضوعية هو القياس الكمي Quantitive measurement (أو التحليل الإحصائي Statistic analysis) للنصوص. وأشار لأجل ذلك إلى بعض السمات اللغوية التي منها: (استخدام وحدات معجمية معينه، النسبة في استخدام صيغ معينة، مقدار طول الكلمات أو الجمل، نوع الجمل – انشائية، خبرية ...، ايثار تراكيب أو استعارات معينة ... لتصبح خواص أسلوبية stylistic markers تظهر في النصوص بنسب Ratios وكثافة Density وتوزيعات Distributions مختلفة ... ويطلق على هذه الدراسة مصطلح علم الأُسلوب الإحصائي Statistic stylistics وهو أحد مجالات الدراسة اللغوية الأسلوبية المعاصرة Linguistic stylisitics.))[32].

وعـرّف الأسـلوب بقولـه : ((إنـه اختيـار choice أو انتقـاء Selection يقـوم بـه المنشـئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين))[33].

وحدد الاختيارات الأُسلوبية بقوله: ((علينا أن نميز بين نوعين مختلفين من الاختيار: اختيار محكوم بالموقف والمقام، واختيار تتحكم فيه مقتضيات التعبير الخالصة.

1- فأما النوع الاول فهو انتقائي نفعي pragmatic selection – ونعني بالنفعي هنا كيفية استخدام الانسان للّغة لتحقيق هدف عملي محدد – وفيه ربما يُؤثر المنشئ كلمة أو عبارة على أخرى لأنها أكثر مطابقة – في رأيه – للحقيقة ... .)) وهو متعلق بتراكيب اللغة ومدلولاتها.

2- وأما النوع الثاني فهو انتقاء نحوي Grammatical selection، والمقصود بالنحو في هذا المصطلح قواعد اللغة بمفهومها الشامل؛ الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجملة... .

ويتحدد الشكل النهائي للنص بهذين النوعين من الاختيار، أعني الاختيار النفعي والاختيار النحوي، إلاّ أن مصطلح الأُسلوب ينصرف أساساً إلى النوع الثاني))[34].

وقد سبقهم عبد القاهر الجرجاني لهذا التحديد كما ذكرنا بقوله : ((إن الكلام الفصيح ينقسم قسمين : قسم تعزى المزيّة والحسن فيه إلى (اللفظ)، وقسم يعزى ذلك فيه إلى (النظم).))[35].

أما النسب المؤوية التي استخلصناها لضروب البلاغة وفنونها التي استخرجناها من هذه النصوص لكل بيت في هذه البحوث، ومقارنة نتائج من ذهب إلى الصنعة مع من اشتهر بالطبع فهي :

1- كانت عند كعب في بردته= 4.14، وعند ابي تمام في فتح عمورية= 2.8 في كل بيت.

2- وكانت عند امرئ القيس في معلقته= 7.57، وعند زهير في معلقته= 5.37 في كل بيت.

من هذه النتائج نجد أن كلاً من امرئ القيس وكعب بن زهير، قد فاقا كلاً من زهير بن أبي سلمى وأبي تمام على الرغم من سلوك طريق الصنعة عند الاخيرين. وفي ذلك دلالة على مشاطرة اللغة للأديب في إنشاء النصّ، وقدرتها على التفاعل معه ورفد المنشئ بتراكيب دقيقة لا يتعمدها تزيد في سبك النص وتلاحمه وقوة الدلالة فيه. ولا شك أن هذا الدعم يكون لكليهما – المصنع والمطبوع – ليظهر من حيث المبدأ عند تضافر الجهدين مضاعفاً عند أهل الصنعة، وعندما حصل العكس ؛ كان ذلك دليلاً على حتمية قوة فعّالية اللغة وعظم قدراتها على دعم الأديب بسعة دلالاتها وتنوع تراكيبها بشطر يقصده هو ويتفنن فيه، وشطر تتفاعل هي به معه دون اهتمام منه، وفي ذلك وكما ذكرنا في بحث معلقة زهير بن أبي سلمى ؛ فإننا ربما يمكن أن نحدد فنون البلاغة التي تعمدها امروء القيس عند نظمه

المعلقة وهي : (حسن المطلع، والتصريع، وحسن التخلص، والاقتضاب، والالتفات، والاستطراد، والاستعارات، والتشبيه، والكنايات، والمجاز، والتقديم والتأخير، والتخصيص، والاعتراض، والتجريد، والمبالغة، والتلميح، وحسن التعليل، والتقسيم، والمثل السائر، والمطابقة، والتفسير، ومراعاة النظير، والاستخدام، والاحتراس، والتمكين، والقسم، والترتيب، والسلب والإيجاب، والتتبيع، وحسن الختام). ثلاثون نوعاً هي التي يغلب الظن أن الشاعر تعمدها دون أن يقصد مصطلحاتها لأنها لم تكن موجودة في زمانه، وما بقي من فنون البلاغة وهي تسعة وأربعون نوعا فحصل من تفاعل اللغة دون اهتمام منه.

ومادام الأمر يتعلق بالبلغاء ونخبهم صار لزام عليّ أن أتناول بالدرس والتحليل على الرغم من ضعفي وعجزي بعض ما ورد عن سيد البلغاء وإمام الفصحاء سيدنا رسول الله ﷺ ؛ ولا سبيل للمقارنة أو الموازنة بينه وبين من ذكرنا في هذه البحوث، فهو مختار الوحي والمؤيد به، وأوتي جوامع الكلم، فقد هيّأه الله تعالى خصوصاً، وأمته العربية عموماً لتلقي القرآن العظيم الذي يتميّز إعجازه بالفصاحة والبلاغة، ولا يتأتى الإعجاز إلا في بيئة تتميّز بذلك، إذ إن المماحكات والمساجلات كانت قائمة في قبائل العرب على قدم وساق بين نخبها لإظهار التمايز بينهم فيما ينشئونه من قصائد بشكل خاص التي علّقوا قِسماً منها على الكَعبة بيت الله الذي يحجونه ويقدسونه اعتزازاً منهم ببلاغتها وأطلقوا عليها المعلقات، حتى أدركوا بهذا التفاعل والتدافع كثيراً من حقائق اللغة وأسرارها مما جعلهم يقفون مبهوتين أمام عظمة البيان القرآني وتحديه لهم، فمنهم مَنْ دفعه ذلك إلى الإيمان به، ومنهم من أدرك عظمته وأظهر عجزه أمام هذا التحدي ودفعته مكابرته إلى البقاء على الشرك والوثنية.

وكان حامل هذه المعجزة والداعي إلى الإيمان بها ومعلّم مضمونها نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام الذي خصّه الله تعالى بصفات ومكّنه بمؤهلات لأداء هذا الدور الجليل الخطب، ولذلك فليس من المعقول أن نقارنه عليه الصلاة والسلام مع ما له من الإمكانات وما خُصّ به من العناية الربانية مع غيره، ولكنني أردت بهذا البحث إظهار طرف من تميّزه بالبيان الذي خصه الله تعالى به، فقمت باختيار أربعين حديثاً في الآداب والأخلاق عدد كلماتها مساوياً لكلمات معلقة امرئ القيس الذي تميّز على أقرانه في هذه البحوث، لتظهر ميزة بيان سيدنا رسول الله ﷺ على الرغم من تهيبي للأمر لاتصافي بالقصور أمام هذا الأمر الجلل، فاستعنت بالله تعالى لتقديم هذه الخدمة لقدوتنا وشفيعنا ﷺ والخدمة للغة القرآن العظيم وعند احصاء أوجه البلاغة فيها تبين أنها (إحدى وثمانون نوعاً بما مجموعه ثلاثة وسبعون ومائة وألف وجه في أربعين حديثاً). ويتبين بذلك البون الشاسع بين البلاغة النبوية وتميُّزها على ما ظهر في معلقة امرئ القيس المقدَّم على أقرانه ، ويجدر بنا أن نذكر بعض ما

جاء من آراء علماء البلاغة في وصف بيان رسول الله ﷺ على مقدار ما ظهر لهم، وكذلك وصفهم لبيان قومه من قريش خاصة والعرب عامة .

قال ابن فارس (ت395هـ): « إنْ أردت أن سائر اللغات تُبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط؛ لأنا لو احتجنا أن نعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة.... وتلك المسماة بالأسماء المترادفة ... فأين لسائر اللغات من السّعة ما للغة العرب؟ ... وحين ذُكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سَنَن العرب في القرآن، فلا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة... لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»[36]. ونَقَل عن الإمام الشافعي قوله: (كلام العرب لا يحيط به إلا نبي)[37]. ونقل ابن رشيق (ت456هـ) قول النبي ﷺ : « **إنّ من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لَحِكَماً**» ، وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه» وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: « الشعر ميزان القول ؛ وقيل القوم»[38].

وقال ابن فارس عن أهمية شعر العرب: « والشعر ديوان العرب وبه حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، ومنه تُعلّمت اللغة، وهو حجة فيما أُشكل من غريب كتاب الله جل ثناؤه، وغريب حديث رسول الله ﷺ »[39]. وروي عن رسول الله ﷺ قوله في امرئ القيس : « إنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار» ، وقال عنه أمير المؤمنين علي ﷺ: « رأيته أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة وإنه لم يقل لرغبة ولا رهبة »[40].. وذكر ابن رشيق إن ما بين امرئ القيس ومبعث رسول الله ﷺ مائة وأربع وخمسون سنة[41]. وبيّن القاضي عياض (ت544) مزايا بيان العرب بقوله : «إنهم كانوا فرسان الكلام ، وقد خُصُّوا من البلاغة والحكم ما لم يُخصّ به غيرهم من الأمم، وأُتوا من ذرابة اللسان ما لم يُؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون ويتوسّلون ويتوصّلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسّحر الحلال، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآلئ ... منهم البدويُّ ذو اللفظ الجزل والقول الفصل، والكلام الفخم والطبع الجوهريّ والمنزع القوي . ومنهم الحضريُّ ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعةِ والكلمات الجامعة، والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية... لا يَشكّون أنّ الكلام طوعُ مرادهم والبلاغة ملك قيادهم ... فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حميد... بهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول ....وذكر أبو عبيدٍ أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [**الحجر: 94**] فسجد وقال : سجدت لفصاحته ؛ وسمع آخر رجلاً يقرأ : ﴿فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا﴾ [**يوسف: 80**] فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام»[42]. ومن مظاهر التفاعل مع نصوصه ما نقله الباقلاني (ت403هـ) : « أن جبير بن مطعم دخل والنبي ﷺ يقرأ (سورة والطور) في صلاة الفجر فلما انتهى إلى قوله: ﴿ إنّ عذاب ربك لواقع ○ ما له من دافع ﴾ [**الطور: 7 - 8**] قال خشيت أن يدركني العذاب فأسلم .... وأن عمر بن الخطاب ﷺ سمع سورة طه فأسلم »[43]. ومن مظاهر التفاعل مع بلاغته في مشركي قريش قول الوليد بن المغيرة لأبي جهل : « فو الله ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ مِنّي ولا أعلمُ برجزهِ ولا بقصيده منّي، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إنّ لقوله الذي يقول حلاوةً وإنّ عليه لطلاوةٍ، وإنهُ لمثمرٌ أعلاه مُغدِقٌ أسفلُه، وإنّه ليعلو وما يُعلى عليهِ، وإنّه ليَحطِمُ ما تَحتهُ»[44].

أما قريش فوصفهم ابن فارس بقوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم؛ أن قريشاً أفصح العرب ألْسِنة وأصفاهم لغةً، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ، فجعل قريشاً قطّان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها : أهل الله ؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام ... وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغتها ورقّة ألسنتها – إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ... فصاروا بذلك أفصح العرب»[45].

وأضاف الثعالبي (ت429هـ) قوله : « ومنها ما تفردوا به من الإيلاف الوفادة والرِّفادة والسِّقاية والرياسة واللواء والندوة .... ومنها كونهم قبلة العرب وموضع الحج الأكبر ... فترد عليهم الأخلاق والعقول والآداب والألسنة واللغات والعادات...بلا كلفة ولا غرم ولا عزم... فصادفت قريحة جيدة وطينة كريمة، والقوم في الأصل مرشّحون للأمر الجسيم، فلذلك صاروا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بياناً، وصار أحدهم يُوزَن بأمة من الأمم؛ وكذلك ينبغي أن يكون الإمام ، فأما الرسول ﷺ فكان يزن جميع الأمم. ومن العجب أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمُّس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي

واستحلال الأموال، فلما زهدوا في الغُصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة... ولما جاء الله تعالى بالإسلام تظاهر شرفهم وتضاعف كرمهم، وصاروا على الحقيقة أهلاً لأن يدعوا أهل الله»[46].

وأما ما ورد في بيان رسول الله ﷺ قول ابن فارس : « وقّف الله جلّ وعزّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علّم بعد آدم عليه السلام نبياً نبياً، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، فآتاه الله جل وعزّ من ذلك ما لم يُؤتَهُ أحد قبله ... وكان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام ...»[47].

قال الله تعالى : ﴿وما ارسلنا من رسول الاّ بلسان قومه﴾ [إبراهيم: 4] قال ابن عباس : ما أرسل الله جلّ وعزّ من نبي إلا بلسان قومه، وبعث الله محمداً ﷺ بلسان العرب[48]. وروى ابن عساكر وأبو نعيم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال له يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال : « **كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَت فجاءني بها جبريل فحفظتها** »، وروى العسكري أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قال : لما قدم بنو نهد على النبي ﷺ وذكر الحديث وما أجابهم به النبي ﷺ بما هو معروف من لغتهم ؛ قال علي ﷺ: « يا نبي الله نحن بنو أب واحد ونشأنا في بلد واحد، وإنك لتكلّم العرب بلسان ما نعرف أكثره؟ قال : **إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي ونشأت في بني سعد بن بكر**»[49].

وقال القاضي عياض: « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يُجهل ؛ سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز قطع ونصاعة لفظٍ وجزالة قولٍ وصحّة معانٍ وقِلّة تكلّفٍ ؛ أُوتي جوامع الكلم وخُصّ ببدائع الحكم ، وعلّم ألْسِنة العرب فكان يخاطب كُلّ أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها ؛ حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله – ثمّ ذَكر نماذج متنوعة عن مجاراته ﷺ للغات العرب ولهجاتها – وقال : وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحِكَمه المأثورة... فمنها مالا يُوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة- وذكر جملة منها – حتى قال : وقد قال له أصحابه ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال: وما يمنعني وإنما أُنزل القرآن بلساني لسانٍ عربي مبين، وقال مرة أخرى : أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش ونشأت في بني سعد »، فجُمع له ﷺ بذلك قوةُ عارضة البادية وجزالتُها ؛ ونصاعةُ ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط به بشريّ. وقالت أم معبد في وصفها له ﷺ : حُلوُ المنطِق فصلٌ لا نزرٌ ولا هذرٌ كأن منطقه خرزات نظمن، وكان جهير الصوت حسن النغمة »[50].

هذه هي البيئة العلمية التي ازدحم فيها العلم والعلماء التي نزل فيها القرآن العظيم، فأدركوا عظمة نظمه؛ فلا هو الشعر الذي عرفوه ولا النثر الذي ألفوه، وكانوا في خبرتهم وإدراكهم بالنسبة لعموم العرب وغيرهم، بمثابة سحرة موسى الذين أدركوا حقيقة معجزة موسى عليه السلام عندما ألقى عصاه فأسلموا وكانوا قدوة لقومهم الذين تبعوهم . وهكذا كان موقف هذه النخبة التي استسلمت للإعجاز القرآني ولم تتجرأ على مناجزته لإدراكها حقيقة نظمه ويبقى تحدي الإعجاز القرآني قائماً إلى قيام الساعة ظهيراً لكل المؤمنين أمام التحديات التي جابهتهم وتجابههم على مرّ العصور. وهكذا يبقى بيرق البلاغة القرآنية والنبوية مرفوعاً مصاناً دائم البرهان كثير الأعوان لما يمتاز به من حقائق ناصعة وبراهين متينة واضحة.

وبعد بيان بعض ما تميز به الحديث النبوي بصنوف البلاغة وفنونها ؛ وتميزه على ما سبقه من كلام البلغاء، يجدر بنا أن ندرس بعض العلاقة بين لغة القرآن الكريم-الذي نزل بلغة قريش أميز لغات العرب ((وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه)) [ابراهيم:4] – وبين (فعّالية اللغة العربية)، إذ استطاعت اللغة العربية أن تعبّر عن معاني القرآن العظيم وأحكامه ودلائل إعجازه بتمكين الله جل شأنه لها بما جعل فيها من قدرات وصفات وفعّالية وإمكانات أهّلتها لذلك، وهذا الذي أطلقنا عليه (فعّاليّة اللغة) مصطلح جديد يقابل مصطلح (الطبع والصنعة) الذي دار الخطاب حوله عند النقاد والأُدباء العرب عند تحليل جميع النصوص الفذّة التي أُنشأت في العصر الجاهلي والعصور اللاحقة، وهذا التمكن للغة العربية في حمل الدلائل القرآنية، يقابله عجز لفصحاء العرب وفرسان البلاغة عن الاتيان بسورة من سوره – ومنها ما يبلغ عشر كلمات – وهذه القدرة جعلتها لغة عالمية لأنها حملت الآيات القرآنية للناس كافة ((وما أرسلناك إلاّ كافّةً للناس بشيراً ونذيراً)) [سبأ:28] وميّزها سبحانه بسهولة الفهم وسرعة الحفظ لدارسي القرآن الكريم ((ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)) [القمر:17] وبرهان صحة ذلك ما عليه غير العرب الآن من معرفة وتمكّن في تلاوة آيات القرآن وإدراك معانيها ؛ في الوقت الذي يصعب عليهم التكلم مع العرب بلغة العلاقات المجتمعية واللغة واحدة ؛ وهذا ما يشير الى ما في لغة القرآن من أسرار تتميّز بها.

إن استيفاء القرآن العظيم لفعّالية اللغة العربية في الفصاحة والبلاغة والنظم والأسلوب والترصيف؛ الذي خرج عن قواعد شعر العرب الذي نظموه والنثر الذي الفوه، أظهر عجز العرب أمام هذا التحدي، وإن استسلامهم لهذا الواقع كان بسبب ذكائهم ونباهتهم وسرعة بديهتهم وقوة ارتجالهم وادراكهم من دلالات اللغة وأسرارها ما جعلهم مبهوتين أمام هذا الاعجاز والتحدي فكان بعضهم يسجد قبل إسلامه عند تلاوة بعض آياته، وبعضهم يسلم

عند سماعها؛ ـ كما فعل سحرة فرعون العالمون بفنون السحر حين أسلموا عندما ألقى موسى عصاه، إذ علموا لإدراكهم الحقائق أن ما جاء به موسى هو الحق. ـ والبعض الآخر من العرب أظهر عجزه وقال ما هذا قول البشر إن هو إلاّ سحر يؤثر، ولم يذعنوا ولم يسلموا لمكابرتهم وحرصهم على المال والجاه اللذين توقعوا زوالهما منهم باتباعهم للرسول الذي كانوا يدعونه يتيم أبي طالب.

وتناولت هذا البحث تحت خمسة عشر عنوانا هي:

1- اللغة العربية حقيقتها وميّزاتها.
2- فصاحة العرب وبلاغتهم.
3 – فصاحة النبي (ﷺ) و بلاغته.
4- من صفات الله عز وجل (الكلام).
5- نزول القرآن على سبعة أحرف.
6 - جمع القرآن الكريم في المصحف.
7- العربية لغة القرآن الكريم عالمية وهي القاسم المشترك للعرب وغيرهم.
8- غريب القرآن وحاجة العرب الى التعلم أسوة بغيرهم من الأمم.
9- القرآن ولغات العرب وغيرهم.
10- المحكم و المتشابه وحكمة ذلك.
11- النص القرآني حمّال أوجه.
12- أساليب القرآن العظيم وبعده عن الشعر.
13- فضائل القرآن العظيم وخواصه.
14- حقائق عن إعجاز القرآن.
15- الكلام النفسي وصنيع القرآن في القلوب.

تبين لنا صفة كلام الله تعالى وما قرره القرآن وفصّل فيه العلماء في ذلك سواء أكان منه النفسي أو ما دلّ عليه ، ثم ذكرنا بعض ما ورد من آراء العلماء في نزول القرآن على سبعة أحرف، ومراحل جمعه في مصحف واحد، وأن لغته مهيأة لسائر الأمم بكافة أشكالها ولغاتها. وما دعت الحاجة الى معرفة غريبه عن لغة العرب ما لم يألفوه في بيئتهم، و أنه نزل على لغاتهم المتعددة تيسيراً لهم، وحكمة ما ورد من المحكم والمتشابه فيه لسعة الدلالة وبيان الأحكام، وكيف أنه حمّال أوجه ليتقلص حجمه وتتسع أحكامه، وأن أساليبه تنوعت وتميزت بأنواع لم يألفها العرب في أقوالهم ونصوصهم، وأنها بعيدة عن الشعر بالشروط التي

وُضعت له، ثم ذهبنا الى بيان فضائل القرآن وخواصه وحقائق عن اعجازه وتفاعله وصنيعه في قلوب سامعيه.

إن من مظاهر عظمة هذه اللغة هو قدرتها على حمل المعاني والدلالات المتعددة في عبارة واحدة، وهذا ما ظهر لي في أُطروحتي للدكتوراه[51]، إذ إنّ أكابر علماء البيان اختلفت آراؤهم البيانية في بعض العبارات القرآنية؛ باختلاف نظرتهم إليها وتذوقهم لها بعد التدقيق والتمحيص في تفسيرها، وهذا من العجائب[52].

إنّ هذه اللغة العربية التي تمكنت من حمل كل هذه المعاني في هذه البحوث وغيرها مما دار في أفلاك العلوم بشكل عام؛ إذ تبين لنا من ذلك أن فعّاليّتها تتجلى فيما يأتي :

أ- قدرتها على استيعاب معاني وأفكار علماء العرب وبلغائها بنثرهم وشعرهم وعلومهم، وأنها تشاطر نخبهم وجهابذتهم ومُفلقيهم؛ إذ إنهم يتعمدون قسماً من التراكيب البلاغية والقسم الآخر يكون للغة.

ب- قدرتها على حمل التعاليم النبوية بدقائقها وأسرارها.

جـ- قدرتها على حمل الآيات القرآنية وأسرارها ودقائقها وعظمتها، وانفرادها بالتراكيب ذات الدلالات البلاغية والمعاني التي أعجز الله عز وجل الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، إذ لولا هذه القدرة على التعبير والفعّاليّات التي أودعها الله تعالى فيها ومكّنها بما فيها من المجاز بأنواعه والإيجاز وكثرة الترادف اللغوي للمعنى الواحد وباقي أسرار اللغة....، إذ يؤدي ذلك كله إلى التعبير الدقيق عن المعاني ذات الدلالات الواسعة العظيمة فضلاً عن عظمة الآيات القرآنية بأوجز عبارة وأوسع دلالة؛ وذلك من عظمة هذه اللغة وعظمة فعّاليّاتها وكبير إمكانياتها وعجيب أسرارها وقدراتها التي أودعها الله سبحانه بحكمته فيها.

إن هذا المصطلح الجديد (فعّاليّة اللّغة العربيّة) الذي أفرزته سلسلة البحوث هذه؛ ظهر بالدليل الملموس الناصع نتيجة التحليل والتمحيص والاستنتاج ...؛ وبلورة النتائج فيها؛ كما سيظهر للقارئ الكريم المدقق الذي سيمخر عباب هذه البحوث ويلقي العنان لأفكاره فيها؛ ليجد نفسه مضطرا لتواصل القراءة والتدبر بين افيائها ودقائقها بسبب تواصل الفكرة بعيدا عن الحشو وتعمد الاختصار ؛ وعند الانتهاء منها سيلقي عصا التجوال مستمتعا مسرورا بانفتاح بابٍ جديد تحت مصطلح (فعّاليّة اللّغة العربيّة) يضيف الى عظمة هذه اللغة دعامة جديدة ؛ ويفتح باباً للباحثين تحت هذا الإطار يبهج الصديق ويغيض العدا من الشعوبيين وغير المنصفين من المستشرقين. وتبقى لغة الضاد لغة القرآن العظيم لغة الإعجاز رايتها أعلى الرايات ((واللّهُ متمُّ نورِهِ ولو كرِهَ الكافرون)) [الصف: 8].

الهوامش:

1- العمدة : 116/1.
2- المثل السائر: 40/1-41.
3- العمدة : 116/1.
4- العمدة : 117/1- 118.
5- البديع:1.
6- طبقات الشعراء لابن المعتز: 235.
7- أخبار أبي تمام: 100.
8- الأغاني: 31/19.
9- الوساطة: 428.
10- الموشح: 418.
11- العمدة: 251/1.
12- ينظر النظام: 159/5.
13- البحث (من الأوجه البلاغية في قصيدة فتح عمورية) نشر في مجلة مداد الآداب – كلية الآداب– الجامعة العراقية العدد (8) لسنة 2014.
14- البحث (أهو الطبع والصنعة؟ أم فعّالية اللغة؟! في بردة كعب بن زهير) نشر في مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد العدد (107) لسنة 2014.
15- ينظر البحث (فعالية اللغة! وصنعة زهير بن أبي سلمى في معلقته) نشر في مجلة المجمع العلمي – بغداد/ الجزء الثالث المجلد الواحد والستون لسنة 2014م .
16- البيان والتبين : 4 / 55.
17- الوساطة : 428.
18- العمدة : 1 / 213.
19- ينظر الكشاف للزمخشري: 16/1.
20- دلائل الإعجاز – المدخل -: 4-7.
21- دلائل الإعجاز: 81.
22- دلائل الإعجاز: 46.
23- ينظر دلائل الإعجاز :429-430، 452، 454.
24- دلائل الإعجاز : 99 – 100 .
25- دلائل الإعجاز : 399.

26- دلائل الإعجاز: 84 – 85 .
27- ينظر دلائل الإعجاز : 294 – 295.
28- دلائل الإعجاز: 262- 263.
29- دلائل الإعجاز: 267.
30- دلائل الإعجاز: 24.
31- دلائل الإعجاز – الملحق: 520.
32- الاسلوب / مصلوح : 18- 19.
33- الاسلوب / مصلوح : 23.
34- الاسلوب / مصلوح : 23-25.
35- ينظر دلائل الإعجاز : 429.
36- الصاحبي : 25-26.
37- الصاحبي : 35.
38- العمدة : 1/17-18.
39- الصاحبي : 481.
40- العمدة : 1/84.
41- العمدة : 2/201.
42- الشفا : 1/258-262.
43- إعجاز القرآن للباقلاني : 24.
44- الخصائص الكبرى : 1/113.
45- الصاحبي : 41.
46- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: 18-19.
47- الصاحبي : 18-19.
48- الصاحبي : 48-49.
49- ينظر : السيرة النبوية والآثار المحمدية : 2/247.
50- ينظر : الشفا : 1/70-81.
51- ينظر أطروحتي للدكتوراه : (أساليب علم البيان في سورة البقرة دراسة موازنة بين تفاسير الزمخشري والآلوسي وابن عاشور).
52-البحث المستل من أطروحة الدكتوراه :(تنوع الأوجه البيانية باختلاف زوايا النظر في العبارة القرآنية). لم يقدم للنشر.